

خزائن الكتب لدى بيوتات العلم الأندلسية ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/13-15م :
نماذج وخصائص

**Private Libraries in Andalusia between the 7th and 9th AH / 13-15AD:
Models and Characteristics**

الدكتور: رشيد يمانى

قسم التاريخ، جامعة تلمسان، Yakim077@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018-02/10 تاريخ القبول: 2020-09/26 - تاريخ النشر: 2020/09/30

المخلص:

تعد ظاهرة المكتبات بالأندلس خلال الفترة الوسيطة إحدى جوانب الحضارة الإسلامية بها، وتكتسي بذلك أهمية خاصة لدى العديد من الباحثين المتخصصين في تاريخ العلوم وعلم المكتبات. آثرنا من خلال هذه الدراسة البحث في المكتبات الخاصة التي ملكها أعلام وأعيان من مملكة غرناطة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (7-9هـ / 13-15م) وتوضيح دور الأندلسي سواء كان عالما أو شاعرا أو فقيها قاضيا أو حتى تاجرا في جمع وامتلاك الكتب والمصنفات على اختلاف مجالاتها. وبذلك ساهمت هذه الظاهرة التي تميز بها أهل الأندلس في الحياة العلمية الغرناطية، بل وتعدت حدود إسهامها إلى بلاد المغرب والمشرق الإسلامي وحتى السودان الغربي.

الكلمات المفتاحية: غرناطة؛ المكتبات الخاصة؛ ظاهرة؛ الكتاب.

Abstract:

The phenomenon of libraries in Andalusia was considered one of the aspects of the Islamic civilization, and it was of particular importance to many researchers specializing in the history of libraries science. The aims of this study to search the phenomenon of private library owned by nobles and scientists in the kingdom of Granada from the seventh to the ninth century Hegira (13th -15th AD) in order to clarify the role of the Andalusian, all positions included, a scholar, a poet, an author, a jurist or even a merchant in collecting and possessing books and works in different fields. It also aims to demonstrate the role of these private libraries in the cultural and scientific life in Granada, and to show their influence which went beyond Andalusia to the Maghreb, Muslim Orient, and Western Sudan.

Keywords: Granada; private libraries; Andalusia; books.

المؤلف المرسل: د.رشيد يمانى ، الإيميل: Yakim077@gmail.com

1. مقدمة:

كثيرا ما ترتبط الدراسات المتعلقة بالحركة الفكرية لدولة أو مدينة ما في العصر الإسلامي الوسيط بحجم الإنتاج الفكري وحركية التأليف وتصنيف الكتب وما يتعلق بها من تفسير ونسخ وصنع مواد الكتابة وتشبيد الخزائن العامة والخاصة ووقف الكتاب؛ ويؤكد ذلك ابن خلدون حين جعل العلم وتعليمه من الصنائع وبين أنها تكثر في الأمصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة.

وبالموازاة يبين ابن خلدون تراجع الدول والحواضر التي انحط دورها الثقافي بضياح تراثها لأسباب متباينة كالحروب والفتن وتبدل الأحوال السياسية بسقوط وتعاقب الدول، وانطلاقا من ذلك يمكن الكشف عن ذلك التراث أو على الأقل تسليط الأضواء عليه وتتبع مظاهره من خلال الإشارة إلى أهم الخزائن؛ وبالتالي فإن تتبع تشكل المكتبات بأنواعها يعتبر جزءا هاما من دراسة الحركة العلمية لحاضرة أو دولة ما ومن ثم الوقوف على أبرز علمائها وأسرها النابغة.

فهما مدى تأثير المكتبات الخاصة في رواج الحياة الفكرية الغرناطية ؟ وهل للمكتبات دور في اصطناع اسم للبيوتات العلمية الغرناطية أم العكس ؟

آثرنا في هذه المساهمة العلمية دراسة ظاهرة انفردت بها البيوتات العلمية الأندلسية بتملكها للخزائن والمؤلفات النفيسة وهذه المكتبات التي اختص بها العلماء ومن وراءهم أعقابهم خلال حكم بني الأحمر. ونسعى كذلك إلى إبراز مدى إسهام هذه المكتبات في الحياة الفكرية الغرناطية، والعوامل المؤثرة في بروز هذه الظاهرة ذات الأبعاد الثقافية والاجتماعية، ومن ثم الإحاطة بأهميتها وتتبع مظاهر انتشارها، والوقوف على نماذج معينة انطلاقا من كتب التراجم معتمدين المنهج التاريخي التحليلي والإحصائي لمعرفة خصائصها.

2. المكتبات الأندلسية بين عوامل النشأة ومظاهر الانتشار

أطنبت الدراسات في دراسة ظاهرة إنشاء المكتبات بالأندلس من خلال الإحاطة بولع الأندلسيين بإقامة هذه المراكز على اختلاف أهدافها ومستوياتها (الحجي، 1972) (الشافعي، 1995) (مسعد، 2000) (الصادقي، 2011) (العجوري، 2008) (الوصفي، 1962).

ويشير ياقوت الحموي إلى أهمية هذه المكتبات في نشاط المؤسسات التعليمية عندما أشار إلى مكتبة خزانة الحكمة : " وكان يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون فيها صنوف العلم والكتب مبدولة لهم والصيانة مشتملة عليهم " (الحموي، 1993، صفحة 1379).

تنقسم خزائن الكتب إلى مكتبات نظامية عامة تابعة للسلطة صارت علامة رئيسية ومميزة للمساجد أو المدارس وحتى القصور، وأخرى خاصة تعود لأصحابها من المؤلفين أو المفكرين أو الناسخين أو حتى من الهاوين في جمعها حيث نجدها في منازل العلماء أو الحوانيت.

إن مدلول كلمة مكتبة تعنى ذلك المستودع الذي تُحفظ فيه الكتب والمؤلفات، وهي تعد كلمة حديثة، فأما ما اصطلح عليها سابقا فيبدو أنهم استخدموا دلالات أخرى للتعبير عن المكتبات فنعتوها بدار الحكمة، أو بيت الحكمة، ودار الكتب، وبيت الكتب، ولعل الأكثر شيوعا خزانة الكتب في التراث المغربي الأندلسي . ساهمت عوامل عدة في انتشار المكتبات الأندلسية؛ حيث مثلت الأجواء الفكرية المتاحة للإرهاصات الأولى لنشأة التأليف فاجتذبت الأندلس فحول الشعراء وعظام الأدباء، وارتادها العلماء من كل صوب حتى أصبحت البلاد مجالا خصبا لمساجلتهم الأدبية وأنشطتهم العلمية، وكثر التأليف والتصنيف (المقري، نوح، 1968، صفحة 154/3).

اعتمد التأليف أكثر على تراث الشرق الإسلامي انطلاقا من الرحلة، إضافة إلى علوم الإغريق التي عملوا على ترجمتها واستكمالها؛ وقد ساعدت هذه الثمرة الفكرية على نشاط مهنة الوراقة والخط وظهور الوراقين والناسخين. كما كان لتشجيع السلطات الحاكمة وآخرها مع سلاطين بني الأحمر دور كبير في رواج هذه المكتبات خاصة بوجود بيئة تساعد على ذلك بانتشار التعليم وموارد الثقافة (ابن الخطيب، 1973، صفحة 556/1) (ابن الخطيب، 1973، صفحة 318/4).

اتخذ الكتاب مزيدا من الأهمية سواء على شكل مطولات أو مختصرات أو متون مشروحة (ابن خلدون، 2005، صفحة 211/3)، وظل الولوج باقتناء الكتب والتنافس في إنشاء الخزانات الخاصة والموقوفة قائما بين الأندلسيين سواء كان من العلماء البارزين أو من العامة الهواة أو من التجار الانتهازيين. ومما لا يحتاج إلى إيضاح أن أقطار المغرب عموما والمغرب الأقصى خصوصا عرفت تدفقا للكتب المنقولة من الأندلس بشكل لم يسبق له مثيل، وذلك بعد اشتداد الضغط على المدن الأندلسية وهجرة الأسر منها.

من هذه الكتب ما وقع بأيدي النصارى وقد يتجاوز بكثير ما أمكن نقله سليما إلى خارج الأندلس؛ حيث استرجع يعقوب المريني فيما بين 684 و685هـ ثلاثة عشر حملا من الكتب وفقا لشروط الصلح مع القشتاليين ، نُقلت إلى مدرسة الحلفائين (الصفارين) بفاس المقابلة لمكتبة القرويين، ويذكر ابن أبي زرع أنه كان فيها مصاحف، وتفسيرا " ابن عطية، والثعالبي"، ومؤلفات الحديث والفقه والعربية والأدب وغيرها (ابن أبي زرع، 1972، صفحة 363)؛ وهي لا تمثل إلا القليل مما كان بيد النصارى مما لم يحرق، ولعل سياسة إحراق الكتب قد نفذت بقسوة في المراحل الأخيرة من الحكم الإسلامي بغرناطة على يد النصارى.

تنوعت أصناف الكتب والمؤلفات ما بين كتب الرحلات ، والأدب والتاريخ والدواوين الشعرية والرقائق والزهديات ونالت مؤلفات التراجم والفهرسات حظا وافرا حتى أضحت سمة الأدب الأندلسي وقتذاك؛ وقد بلغ

نماذج وخصائص

عدد هذه التصانيف حوالي مليوني مؤلف وكتاب، ويقدر ما كان الكتاب مرآة العصر، فإن بعض الآراء والأفكار قد وجدت معارضة شديدة طوال الحكم الإسلامي في الأندلس فجعلت عرضة لضياع المؤلفات النفيسة التي ذهبت ضحية إحراقها (الحجي، 1972) (الشافعي، 1995، صفحة 137).

كما كانت ظاهرة الوقف (ابن منظور، د-ت، صفحة 4898) على المكتبات تعكس مدى حب مسلمي الأندلس للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه كما كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد ليضمنوا حفظها وإتاحتها للطلاب والدارسين ومن بين هذه المؤلفات: كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة الذي أوقفه ابن الخطيب لأجل أن ينتفع به الطلبة (المقري، أزهار، 1939، صفحة 55/1).

قامت المكتبات بصفة عامة ومكتبات الوقف بصفة خاصة بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع، كما أنها أعطت صورة صادقة لمدى اهتمام الأندلسيين بالفكر والعلم والعلماء.

كما مثلت بيوت العلماء (عياض، 1982، صفحة 59) (ابن عطية، 1983، صفحة 78) (السبتي، الرحلة، 2003، صفحة 46) (ربيرا، 1994، الصفحات 67-71-117) هي الأخرى مرتعا للعلوم وأخذ المعرفة من مصدرها أي من منازل العلماء والفقهاء وبيوت النحويين والأدباء، حيث كان من الأساتذة من يدرس بمنزله؛ شأن عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى الأنصاري القرطبي الذي جعل داره بيتا للإقراء والمطالعة والذكر (ابن الخطيب، 1973، صفحة 406/3)؛ كما كان منزل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن عياش التُّجيبِي مألفا لطلبة العلم يأوون إليه ويحتكمون (المراكشي، 2006، صفحة 465/1).

ولا نستبعد في هذا الإطار أن تكون مثل هذه البيوت غير أهلة بنفائس الكتب والمؤلفات سواء منها كبرامج ومواد تعليمية يستعين بها طلبة العلم في استزادتهم من ضروب العلم، أو كتب خاصة بالأستاذ صاحب البيت يكون قد ألفها أو استفدها من داخل الأندلس أو خارجه .

من جهة أخرى وُجد من العلماء من جلس للإقراء في قريته بالبادية الأندلسية وكانت له سمعة في ذلك حتى رحل إليه طلبة العلم (ابن الخطيب، 1973، صفحة 96/3). وفي المقابل يبدو أن ظاهرة الدروس الخصوصية كانت قد انتشرت، وعُرف بعضهم بنقاضي الأجر بعد تدرسيه مثل العالم النحوي ابن أبي الربيع الأموي الأشبيلي (السيوطي، 1979، صفحة 125/2). لكن وفي المقابل كثيرا ما أضاف الأساتذة والعلماء إلى مهمتهم التنقيفية إكرام طلبتهم ومُتعلّميهم عندما يكونون قادرين على ذلك.

3. أنواع المكتبات الأندلسية:

نشطت عملية اقتناء الكتب وتوسيع الخزائن وتشكيلها على نطاق واسع خلال العهد النصري ومثلت الحواضر أهم مرتع لها، وقد قام الخواص من أعلام غرناطة ومالقة والمرية بجهد كبير في ذلك منافسين بذلك جهود العواهل التي أنجبت لنا:

الخزانة السلطانية بغرناطة: كان مقرها بقصر الحمراء، ولعلها كانت موجهة أكثر لطبقات معينة من المجتمع الغرناطي من الطبقة الحاكمة، خاصة السلاطين العلماء أمثال محمد الفقيه، أو أبنائهم الذين يزولون الدراسة داخل القصر، إضافة إلى الوزراء والقضاة والكتاب.

وتولى نظارة هذه المؤسسة متقفون مرموقون مثل الفقيه محمد بن أحمد بن فتوح بن شقرال المتوفى عام 730هـ/1329م، الذي رتب له الوزير أبو عبد الله المحروق جراية بالحمراء، وقلده نظر خزانة الكتب السلطانية (ابن الخطيب، 1973، صفحة 25/3).

مكتبة المدرسة اليوسفية (العفاقي، 2015) (Golvin, 1984, pp. 305-313): مما وقفه السلطان الغالب بالله محمد التاسع (السخاوي، 1992، صفحة 68/10) (عنان، 1954، صفحة 38) (بن شريفة، 1985، صفحة 47) (Arie, 1990, p. 131) (Paredes, 1978) عليها نسخة من كتاب "الإحاطة" في اثني عشر مجلدا سنة 829هـ، وفي هذا الصدد يروي المقري رواية عن الأديب أبي عبد الله محمد الحداد الوادي أشي بقوله: " كان على ظهر النسخة الرائدة الجمال الفائقة الكمال، من الإحاطة في تاريخ غرناطة، المحبسة على المدرسة اليوسفية " (المقري، أزهار، 1939، صفحة 55/1).

مكتبات القصور: نافس بعض كبار المسؤولين ملوك بني نصر في اقتناء الكتب والتقيب عن نوادرها حتى قيل أن ذا الوزارتين محمد بن عبد الرحمن اللخمي الرندي (ت 708) قد أفرط في ذلك وضاعت قصوره عن استيعابها (ابن الخطيب، 1973، صفحة 446/2).

المكتبات النظامية: نقصد بها مكتبات المساجد وما أوقف عليها من نفائس الكتب، وتعتبر النواة التي قامت على أساسها كل أنواع المكتبات الأخرى، فكانت هناك مكتبة في كل مسجد واحتوت هذه المكتبات على كل أنواع الكتب الدينية والثقافية. إضافة إلى ما يتم نسخه من المؤلفات الشهيرة والتي عادة ما تكون مقررات التعليم ومناهجه.

كما ورث أهل الأندلس دور الكتب التي تعود إلى فترات سبقت حكم بني نصر ومنها مكتبة المرية التي أقامها أبو جعفر أحمد بن العباس الوزير- وزير زهير الصقلي- الذي كان جامعا للدواوين العلمية والدفاتر حتى بلغت أربعمئة ألف مجلد (المقري، فنج، 1968، صفحة 535/3) (ابن الخطيب، 1973، صفحة 267/1) ومكتبات مالقة التي عرفت عدة نساخين ووراقين أهمهم ابن مدرك الغساني الذي اقتنى عددا هائلا من الدفاتر والدواوين فاق أهل بلده، ومكتبة الجامع الكبير بمالقة (رببير، 1994، صفحة 81).

نماذج وخصائص

ساهمت تلك المكتبات بدور فعال في عملية الاتصال بين العلماء حيث عملت على إمداد المؤلفين الأندلسيين بمصادر للمعلومات كان لها تأثير على مؤلفاتهم فيما بعد. كما وفرت تلك المكتبات الكتب النادرة والموجودة في المشرق سواء توفرت هذه الكتب في مكتبات خاصة، أو عامة، حتى أتاحت للمؤلفين وإن لم يسافروا إلى خارج الأندلس أن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات.

3- المكتبات الخاصة للبيوتات العلمية الغرناطية : نماذج ونتائج .

لقد كان الإهتمام بإنشاء الخزائن وتنميتها من أكثر الظواهر انتشاراً بين المثقفين خصوصاً الذين تسمح مواردهم أو جاههم بالحصول على النفائس من المؤلفات، وبالإكثار من جمع الكتب؛ وغالباً ما يبدأ ذلك في مرحلة الطلب ليصبح هواية بل ولعاً بعد ذلك.

* **مكتبة ابن جُزَيّ** : نسبة إلى محمد بن أحمد بن محمد المكنى بأبي القاسم (ت741هـ) وهو ينتمي إلى أحد البيوتات العريقة بغرناطة وأكبرها نظراً لعدد أفراد هذا البيت، ونظراً كذلك للمدة التي قضاها في ساحة الإسهامات والتي تجاوزت خمسة قرون (Basanta, 1996, pp. 161-201).

وصفه ابن الخطيب في الإحاطة بأنه من العلماء الموسوعيين بقوله: " كان رحمه الله على طريقة مثلى من العكوف على العلم... والتقييد والتدوين، فقيها حافظاً، قاوماً على التدريس " ؛ ويضيف بشأن مكتبته بقوله: " جماعة للكتب ، ملوكي الخزانة... (ابن الخطيب، 1973، صفحة 20/3).

وبالتالي بقراءة متأنية لما ذكره ابن الخطيب يبدو أن ابن جزي نفسه كان كاتباً ومؤلفاً لجملة من الكتب ذكر العشرات منها في الإحاطة ، إضافة إلى شغفه بجمع الكتب شأنه في ذلك شأن بني جلدته من أهل الأندلس.

* **مكتبة ابن الزبير الغرناطي** : نسبة لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن كعب الثقفي (ت708هـ) (ابن الخطيب، 1973، صفحة 188/1) صاحب صلة الصلة، أطنبت الدراسات في التعريف به وإبراز صفاته العلمية؛ حيث ساعده انحداره من أسرة ذات حسب أصيل وجاه ومال إضافة إلى تكوينه في الحاضرة الغرناطية على يد ثلثة من الأساتذة المقرئين في صقل شخصيته العلمية .

استؤلي على ذخائر كتبه وكراساته العلمية التي قيدها عن شيوخه أثناء محنته في مالقة والمتعلقة بالمعارضة السياسية لبني اشقيلولة إلا أن سلطان غرناطة أبا عبد الله بن نصر استردّها له (ابن الخطيب، 1973، صفحة 191/1) (ابن فرحون، 1996، صفحة 390).

* **مكتبة ابن لب** : صاحبها أبو عبد الله محمد بن محمد بن لب الكناني من أهل مالقة، وكان مختصاً بالعلوم العقلية أو كما سماها ابن الخطيب العلوم القديمة كالإلهيات والطبيعات والرياضيات،

وصف بسعة فهمه أكثر من حفظه. وصى قبل موته بحبس داره وطائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة (ابن الخطيب، 1973، صفحة 79/3).

* **مكتبة الشاري**: نسبة إلى مؤسسها أبي الحسين علي بن محمد الغافقي المعروف بالشاري الغافقي السبتي (ت649هـ) التي كانت تجمع في رفوفها ذخائر الكتب ونفائس المخطوطات (السبتي، إفادة، دت، صفحة 105).

* **مكتبة ابن عمران الحضرمي** قاسم بن أحمد بن محمد الذي حل بغرناطة سنة سبعمئة وثمانية عشر (718هـ)، يقول ابن الخطيب عن خزانته: " وكان على خزانة الكتب، وكان يقرئ القرآن به ". نبغ في عدة علوم خاصة منها القراءات التي له فيها تقييد: " الشافي في اختصار التيسير الكافي "، وقد توفي في الطاعون الجارف أي سنة 749هـ أو 750هـ (ابن الخطيب، 1973، صفحة 268/4).

* **مكتبة محمد بيبش العبدري الغرناطي** : الذي كرس نفسه لعلم بعينه فعكف على البحث في العربية مع مشاركة في الطب، وكان يعيش من تجارة الكتب (ابن القاضي، 1970، صفحة 39/2) (ابن الخطيب، 1973، صفحة 27/3).

إن سلامة سريرة أهل العلم في الأندلس جعلتهم لم يدخروا أي جهد في اقتناء الكتاب واعتباره أحسن ذخيرتهم، لذلك كان طلبة العلم والعلماء يكتسبون لأنفسهم كتباً نادرة ويفتخرون بها ويجمعون في منازلهم ومساجدهم ومدارسهم .

هذا إضافة إلى إمكانية وجود مكتبات حافظ أبناء البيت الواحد على استمرارها حيث يستفيد منها الحفدة والأعقاب حتى بانقضاء مؤسسها ومكونها شأن مكتبة عبد الحق غالب بن عطية الذي ذكره ابن الخطيب على أنه من بيوتات غرناطة الأصلية، تولى القضاء بمدينة المرية سنة 529هـ، وكان عالماً بالتفسير والحديث والفقه والنحو والأدب، وقال في شأن مكتبته " سري الهمة في اقتناء الكتب " (ابن الخطيب، 1973، صفحة 539/3).

والأمر نفسه ينطبق على مكتبة ابن الباذش الغرناطي والتي تُنسب إلى علي بن أحمد بن خلف بن محمد بن الباذش الأنصاري الغرناطي والمعروف بأبي الحسن (ت528هـ). ولعل أهم ما يميز مكتبته أنه استأنرت بها كتبه؛ حيث يقول ابن الخطيب عنه: " كان حسن الخط كثير الكتب ترك منا بخطه كثير ... وقد أُلّف في النحو كتباً كثيرة " (ابن الخطيب، 1973، صفحة 100/4).

من جانب آخر ساهم أبناء البيوتات العلمية الأندلسية في تشييد دور العلم ومؤسساته المختلفة وأوقفوا عليها الكتب والأموال ومن أهم ما شيده المكتبات الخاصة التي كانت ملاذاً لأهل العلم من كل الطبقات والأطراف:

انتشرت مجموعة من الخزائن والمكتبات الخاصة في ربوع الأندلس وكان منها ما ورثه أهل العلم عن أهل بيتهم، ومنهم ما هو وافر من العدة المغربية، ومن جهة أخرى كثير من المؤلفات هي مشرقية

نماذج وخصائص

دخلت الأندلس في رحلة الكتاب بين الأقطار الإسلامية التي مثلت بحق التواشج الثقافي والتواصل العلمي الليبي.

وأعظم الخزائن الخاصة لهذه الفترة، هي خزانة الشاري الغافقي علي بن محمد السبتى، من أشهر المحدثين المغاربة، وأصل أسلافه من الأندلس، نسبة إلى شارة فليين بأحواز مرسية، وذكر ابن الزبير الذي أدركه أنه تحصل لديه من الأغلاق النفيسة وأمهات الدواوين العلمية، ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره ولا عند كثير ممن تقدمه، وهذا مع إنشائه مدرسة كبيرة بسببة زودها أيضا بخزانة كان ينوي تتميتها بالمزيد من المخطوطات المنتقاة من المشرق، فعاقته المنية عن ذلك، ومات بالأندلس سنة 649هـ (حركات، 2000، صفحة 65).

أما **خزانة عبد المهيمن الحضرمي** عالم الحديث والمعقولات، وأستاذ عبد الرحمن بن خلدون، فكانت كتبه تزيد عن ثلاثمائة مجلد، قال ابن خلدون إنها في سائر الفنون، زانها مضبوطة كلها مقابلة، ونوه مؤلف بلغة الأمنية بعناية قاضي سبنة أبي بكر الحسنى الإدريسي، بجمع الكتب والبحث عن أصولها العتيقة، وكان فقيها حيسوبياً عالم عربية وقراءات (حركات، 2000، صفحة 68).

ساهمت كتب علماء البيوتات الكبرى شأن **بيت بني جزى وبني منظور القيسي وبني الحكيم اللخمي وبني الوزير (بني الخطيب السلماني) وبني مسعود المحاربي** إسهاما علميا في الإنتاج الفكري الأندلسي وتكوين طلبة العلم آنذاك بعد حبس أغلبها على دور العلم ومجالس الفكر ووقفها على المساجد الكبرى بالحواسر الغرناطية .

كان للبيئة العلمية الأصيلة التي عايشها أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبى الغرناطى (ت 741هـ) أثر في عكوفه على طلب العلم منذ صباه، وتشير المصادر إلى أنه كان يملك مكتبة ضخمة متنوعة، وأنه كان عاكفاً عليها مستفيداً منها حيث تزلج من المعارف المختلفة كالقراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، وأصول الدين والكلام وحتى بعض فنون التعاليم على صغر سنه. ويبدو أن هذه المكتبة قد استفاد منها أولاده الثلاثة بعد استشهاده في موقعة طريف سنة 741هـ حيث تشير تراجمهم إلى عكوفهم على العلم و التأليف فيه .

نبغ الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي (ت 710هـ) في ضروب العلم وعُرف بحسن الخط إذ أنه يكتب خطوطاً على كل أنواعها، ولعل أهم ما تميز به هذا العالم تقربه من العلماء والكتب فأكرم العلم والعلماء وأفرط في اقتناء الكتب فضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أُنديته من ذخائرها (ابن الخطيب، 1973، صفحة 444/2).

إضافة إلى اشتغاله بالتعليم كان القاضي عثمان بن يحيى بن محمد بن منظور القيسي (ت 735هـ) محترفاً بصناعة التوثيق، حيث كان قد صاهر أعلام بلده حيث تزوج زينب ابنة الفقيه المشاور أبي علي بن الحسن؛ فاستقرت عنده كتب والدها؛ والتي استعان بها على العلم والتبحر في المسائل والتصنيف (ابن الخطيب، 1973، صفحة 86/4) (ابن القاضي، 1970، صفحة 208/3).

وترك المحدث الرواية محمد بن سعيد بن علي بن يوسف الأنصاري الطزاز (ت 645هـ) مكتبة من خلفه وهو المعروف بضبط وإتقان أمهات الكتب والمصادر المعاصرة له، وقد كتب بخطه كثيراً (ابن فرحون، 1996، صفحة 390) (ابن الخطيب، 1973، صفحة 41/3).

بينما اشتهرت أسر أخرى ببناء المراكز العلمية وإتباعها بمرافق كالمكتبات شأن بيت الساحلي المالقي الذي ذاع صيته في بناء دور العلم ومرافقه بهدف تعميم التعليم ونشر طريقتهم الصوفية وعلى رأسهم الشيخ الولي أبو عبد الله الساحلي (ت 735هـ) الذي حصل على دعم مالي كبير فائدة لطائفته بعد الرحلة السفرية التي قام بها إلى المغرب وفاس على وجه التحديد قبيل سنة 719هـ، والتي مكنته من بناء المساجد والمدرسة غربي الجامع الأعظم بمالقة (الساحلي، 2003، صفحة 17) (العسقلاني، 1993، صفحة 322/3).

أنفق محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي المعمم (ت 754هـ) ماله في بناء المدارس (ابن الخطيب، 1973، صفحة 191/3) ومن ورائها ما يلزمها من مؤلفات وكتب، وورث عنه هذه الصفة محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري الساحلي ابن المعمم (ت 754هـ) الذي بنى المدارس والمساجد بعد أن صاحب والده في رحلته والتي جاء من ورائها مصادر أمواله .

ولا شك أن بيت بني يحيى البلوي كان من أشد العاكفين على العناية بحاجيات مجتمعهم من خلال ما خلفوه وراءهم من مؤسسات علمية ومراكز دينية، فقد كان ذلك من مهام وأعمال يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى البلوي وإسهاماته الاجتماعية (ابن عسكر، 1999، صفحة 373) (ابن الزبير، 2008، صفحة 434/3). فحسب ابن الزبير أنه شق وبنى ببلده مالقة خمسة وعشرين مسجداً من صميم ماله، وخدم فيها وعمل بيده، ولا نشك في أن تشييد هذه المراكز العلمية لا تكاد تخلو من أمهات الكتب وقتذاك، كما حفر ببلده أيضاً آباراً عدة تتيّف على خمسين بئراً، وغزا عدة غزوات مع المنصور بالمغرب، ومع صلاح الدين بالشام، وكان يؤذن بالباب الغربي القريب للقبلة من جامع مالقة "باب الرحمة" .

كما كان ابن الشيخ عبد الرحيم بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن غالب البلوي (ابن الزبير، 2008، صفحة 161) (ابن الآبار، 1995، صفحة 61/3) على سنن أبيه صلاحاً وانقباضاً وهو خطيب جامع مالقة. وجرى عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى البلوي هو الآخر على سنن سلفه في العلم والفضل والخير حتى قال فيه ابن عسكر: "اقتفى جادة أبيه وجده، نفذ في العلم سهمه" (ابن عسكر، 1999، صفحة 246).

4. خاتمة:

مبلغ جهدنا في هذه المساهمة العلمية معرفة الصورة التي تكونت بها المكتبات الخاصة بالأندلس في العصور المتأخرة من العهد الإسلامي الوسيط، حيث عرفت مدينة غرناطة، ومالقة والمرية وغيرها من الحواضر الأندلسية تشكل مكتبات بسبب مكانتها العلمية ودور بعض النخب في جمع المادة المعرفية. تتجلى لنا هذه المكانة من خلال العلماء ممن وضعوا التصانيف في شتى علوم عصرهم وتعلمذ عليهم عدد كبير من طلاب العلم في مناطق عديدة من العالم الإسلامي وفي أمصار علمية شهيرة مثل مكة والمدينة المنورة والقاهرة ودمشق وبيت المقدس وتونس وفاس وتلمسان وغيرها من كبار القواعد العلمية. في المقابل شكل التراث الديني القسم الأكبر في هذه الخزانات، ما بين مصاحف وحديث وسيرة نبوية وفقه مالكي وأصول الدين ونوازل وأحكام قضائية وغيرها من العلوم النقلية، ولعلها كانت في مجملها مواد تعليمية وبرامج لطلبة العلم وأهمها متن الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ومختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وغيرها من المصادر الدينية المعروفة .

إلى جانب ذلك تحتوي المكتبة على مخطوطات في الأنساب وفي التصوف والفرائض والتاريخ والتراجم شأن كتاب الإحاطة الذي حبس على بعضها، والغالب على أمرها أنها منظومات وأرجوزات شعرية تسهила للحفظ مثل تحفة الحكام لابن عاصم .

وفي المقابل لا تمثل الخزائن إلا القليل مما تكتنزه البيوتات العلمية التي توارثت العلم والخطب الدينية والإدارية كابرا عن كابر وأبا عن جد في حواضر الأندلس الكبرى وثغورها وبواديها، وقد بينا نماذج عن العلماء الذين أطبقت شهرتهم الآفاق، وتصديهم للتدريس والتأليف وذلك يرتبط بوجود المصنفات التي كانوا يُدرسونها ومن خلال تأليفهم في شتى العلوم التي اشتهروا بها؛ وبالتالي يؤدي ذلك بالضرورة إلى وجود مكتبات وخزائن كتب يعود إليها طلبة العلم وعلماء محليون ووافدون بغرض التأليف أو للاستزادة وتعميق معارفهم.

وبناء عليه فإن المكتبات في بلاد الأندلس على العهد النصري تشكل جزءا من الكل؛ فقد ظلت الكتب المقررة في التدريس هي التي تستأثر بالتصنيف تبعا للقضايا التي ظلت تدرس وتفحص في شتى أنواع العلوم العقلية منها والدينية. إضافة إلى تنقل الكتب بين مختلف حواضر العالم الإسلامي مع تنقل الأشخاص سواء كانوا طلاب علم أو علماء وهو ما نتج عنه ما يعرف بالوراقة أي عملية صناعة الكتاب من نسخ وتجليد وتسفير .

5. قائمة المراجع:

- Celia del Moral Molina y Fernando Nicolas Velasquez Basanta .(1996) .los Banu Yuzzai. Una familia de junistas intelectuales del siglo XIV . 45 ., MEAH.
- Lucien Golvin .(1984) .Quelques réflexions sur la fondation d'une madrasa à Grenade en 750 = 1349 . Actas del XII Congresso de la UEAI-305 (الصفحات 313Malaga :UEAI-Madrid1987).
- Luis Seco de Lucena Paredes .(1978) .MUHAMMAD IX Sultan de Granada . Granada :Patronato de la Alhambra.
- Rachel Arie .(1990) .L'Espagne musulmane au temps des nasrides (1232-1492 .(Paris :De Boccard.
- إبراهيم حركات. (2000). مدخل إلى تاريخ العلوم في المغرب الإسلامي. دار البيضاء: دار الرشاد الحديثة.
- ابن أبي زرع. (1972). الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . الرباط: دار المنصور للطباعة.
- ابن حجر العسقلاني. (1993). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. بيروت: دار الجيل.
- ابن رشيد السبتي. (د-ت). إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح. (محمد الحبيب بن الخوجة، المحرر) تونس: الدار التونسية للنشر.
- ابن رشيد السبتي. (2003). الرحلة . (أحمد حدادي، المحرر) الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- ابن الآبار. (1995). التكملة لكتاب الصلة. (عبد السلام الهراس، المحرر) بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن الخطيب. (1973). الإحاطة في أخبار غرناطة (المجلد 1). (عبد الله عنان، المحرر) القاهرة: مكتبة الخانجي.
- ابن الزبير. (2008). صلة الصلة ذيل كتاب الصلة لابن بشكوال . (شريف ابو العلا العدوي، المحرر) القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن القاضي. (1970). درة الحجال في أسماء الرجال. (محمد الأحمدى أبو النور، المحرر) القاهرة: دار التراث، المكتبة العتيقة، دار النصر للطباعة.
- ابن خلدون. (2005). المقدمة (المجلد 3). (عبد السلام الشدادى، المحرر) خزانة ابن خلدون بيت العلوم والفنون والآداب.

نماذج وخصائص

- ابن عطية. (1983). الفهرسة . (محمد أبو الأجدان ومحمد الزاهي، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- ابن فرحون. (1996). الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب. (محمد بن محي الدين الجنان، المحرر) بيروت : دار الكتب العلمية.
- ابن منظور. (د-ت). لسان العرب،تح: .، (علي شيبري، المحرر) القاهرة: دار المعارف.
- أبو عبد الله محمد الأنصاري المالقي الساحلي. (2003). بغية السالك في أشرف المسالك . (عبد الرحيم العلمي، المحرر) الرباط: وزارة الأوقاف المغربية.
- أحمد الصديقي. (2011). الكتاب بالمغرب والأندلس، إسهام في دراسة انعكاسات ثقافة الكتاب على المجتمع (من القرن 6هـ/12م إلى القرن 8هـ/14م. مكناس: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مكناس.
- السخاوي. (1992). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. بيروت: دار الجيل.
- السيوطي. (1979ظ). بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . (محمد أبو الفضل إبراهيم، المحرر) دار الفكر.
- الغساني محمد ابن طرزعسكر . (1999). أعلام مالقة . (عبد الله المرابط الترغي، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي، دار الأمان للنشر والتوزيع، مطبعة دار صادر.
- القاضي عياض. (1982). الغنية، . (ماهر زهير جرار، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- المقري. (1939). أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (المجلد 1). (مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، المحرر) القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- المقري. (1968). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (المجلد 3). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.
- حامد الشافعي. (1995). الكتب والمكتبات في الأندلس. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر.
- خالد الوصفي. (1962). أكبر مكتبة بالغرب الإسلامي. مجلة المعرفة (6)، 76-96.
- خوليان ربييرا. (1994). التربية الإسلامية في الأندلس- أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية . (الطاهر أحمد مكي، المحرر) القاهرة: دار المعارف.
- رشيد العفاقي. (2015). تاريخ المدرسة النصرية بغرناطة . جداول للطباعة والنشر والتوزيع.
- سامية مصطفى مسعد. (2000). الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

- عبد الرحمن علي الحجي. (1972). ، الكتب والمكتبات في الأندلس. مجلة كلية الدراسات الإسلامية ، العدد الرابع.
- عبد الواحد المراكشي. (2006). المعجب في تلخيص أخبار المغرب (المجلد 1). (صلاح الدين الهواري، المحرر) بيروت: مكتبة لبنان.
- محمد بنشريفة. (1985). البسطي آخر شعراء الأندلس . بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- محمد عبد الله عنان. (1954). وثيقة قشتالية أندلسية من القرن التاسع الهجري . مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، 2.
- وفاء العجوري. (2008). شغف الأندلسيين بالكتب. مجلة دعوة الحق (389)، 99-113.
- ياقوت الحموي. (1993). معجم الأديباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.

6. ملاحق:

جدول لأهم المكتبات الخاصة لأبناء البيوتات الأندلسية خلال القرنين 8 و9هـ.

المكتبة	البيت	أهم أفرادها	العبارة الدالة على امتلاك المكتبة	المصدر
مكتبة ابن جزري	بنو جزري	أبو القاسم محمد بن جزري	جماعا للكتب ملوكى الخزانة.	ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص 20.
خزانة الشاري	الشاري الغافقي	علي بن محمد الشاري الغافقي	تحصل لديه من الأعلام النفيسة وأمهات الدواوين العلمية	ابن الزبير، صلة الصلة، ص ص 149-153.
خزانة ابن عبد المهيمن الحضرمي	بنو عبد المهيمن الحضرمي	عبد المهيمن الحضرمي	كانت كتبه تزيد عن ثلاثمائة مجلد.. في سائر الفنون	ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص66.
مكتبة أبي عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي	بنو الحكيم اللخمي	أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي	وأفرط في اقتناء الكتب فضافت قصوره عن خزائنها وأثرت أُنديته من ذخائرها.	ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص 444، 445.

نماذج وخصائص

مكتبة بني منظور القيسي	بنو منظور القيسي	عثمان بن يحيى بن محمد بن منظور القيسي	استقرت عنده كتب... استعان بما على العلم والبحر في المسائل والتصنيف	ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص86 - ابن القاضي، درة، ج3، ص208.
مكتبة ابءن سمجون الهاليرظ	بنو سمجون الهاليرظ	علي بن أبي بكر بن سمجون الهاليرظ	وكانت له كتب كثيرة	ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص185 .
مكتبة ابن الزبير	بنو الزبير الغرناطي	أحمد بن إبراهيم ابن الزبير الغرناطي	استولي على ذخائر كتبه في مالقة واستردّها له سلطان غرناطة أبو عبد الله بن نصر.	ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص191 .
مكتبة ابن لب	بنو لب المالقي	محمد بن محمد ابن لب	وصى قبل موته بحبس داره و طائفة من كتبه على الجامع الكبير بمالقة.	ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص79.
مكتبة ابن عمران الحضرمي	بنو عمران الحضرمي	قاسم بن أحمد بن محمد بن عمران الحضرمي .	دخل غرناطة وكانت له خزانة كتب.	ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص268.
مكتبة ابن مسعود المحاربي	بنو مسعود المحاربي	أبو بكر يحيى بن مسعود المحاربي (ت 727هـ)	عرف عنه اقتناؤه للكتب العلمية	النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص139- ابن القاضي، درة، ج3، ص331.